العلاقات التجارية بين مصر والهند[١]
٦٤٨ هـ ــ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ــ ١٥١٧م

أ.م.د. حسين علي الطحطوح السيد ياسر المشهداني
جامعة الموصل / كلية التربية

المقدمة :

مما لا شك فيه ان العلاقات التجارية، تعد من أقدم اشكال العلاقات التي ربطت الافراد والشعوب، ومن ثم الدول على مر العصور. وعليه فان دراسة (العلاقات التجارية بين مصر والهند) خلال العصور المؤشرة في اعلاه، تكتسب أهمية خاصة، ليس بسبب الموقع الجغرافي للبلدين كليهما وطبيعة منتجاتهما فحسب، بل بسبب تهيئة الظروف المناسبة لديمومة تلك العلاقات وتطورها، وما رافقها من تأثيرات متبادلة بين البلدين، الامر الذي اسهم في خدمة المتطلبات الانسانية الانية، فضلا عن اثراء التراث للبلدين.

المبحث الاول : السياسة التجارية :

اولا : مصر:

لا شك ان أي ازدهار حضاري في بلد ما يتطلب توافر عدة مقومات اسهمت في توفير الارضية الخصبة لنموه ، وبما ان التجارة هي احدى المعالم الحضارية لتقدم البلاد ذات الموقع التجاري المميز والاستقرار السياسي فضلا عن اهتمام الحكومة وتشجيعها للتجارة فمن الضروري الوقوف جليا على الابعاد الاقتصادية لها والاحاطة بهذه الامور عند دراسة علاقاتها مع البلدان الاخرى ، وهذا ينطبق تلقائيا على علاقات مصر والهند التجارية.

عوامل ازدهار تجارة المماليك:

على الرغم مما تركته الحروب الصليبية من اثار سلبية على جانبي البحر المتوسط (بحر الشام) فان العلاقات التجارية بين الدول لم تنقطع نهائيا ، اذ ان الاقتصاد يرتكز على وحدات يكمل بعضها الاخر ، وعندما شارفت الحروب الصليبية على نهايتها اخذ الاوربيون يتحاشون المرور باراضي الدولة المملوكية ويعززون الطريق البري القادم من اوربا الى بلاد فارس فالهند ، ولكن هذا الطريق سرعان ما اصبح غير ملائم بسبب التغيرات السياسية التي احدثها دخول المغول لبغداد وبسط نفوذهم الى بلاد فارس . وهنا برزت الى الواقع الموانيء المملوكية لتبدأ مرحلة جديدة من تاريخ العلاقات التجارية الدولية[٢] . ومنذ ذلك الحين اظهرت

الدولة المملوكية نظاما للتجارة له قواعد ثابتة للمبادلات التجارية القائمة بين اسيا وافريقيا واوربا واحيانا الصين[٣].

سياسة المماليك التجارية:

لم تكن واردات تجارة الهند وموقع مصر البحري خافية عن اذهان السلاطين المماليك، فاخذوا يشجعون تلك التجارة واتخذوا عدة سياسات كان الهدف منها ضمان استمرار تجارة مصر ، ولعل ابرز تلك السياسات:

أ. تأمين الطرق التجارية:

لم يكد يخلو أي طريق بحري في العصور الوسطى الاسلامية من خطر قطاع الطرق الذين وجدوا من اعمال السلب والنهب مهنة مناسبة تكفل لهم دخلا غير مشروع، وغالبا ما كانت السلطات تطاردهم وتحد من قرصنتهم . وقد حرص السلاطين المماليك على تأمين طرقهم التجارية مع الهند اقتداء بسلاطين الدولة الايوبية من قبلهم[٤]، فقد شهد عهد السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ –٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ – ١٢٩٠م) نزاعات واضطرابات داخلية بين عدد من القبائل العربية الساكنة في صحراء عيذاب على البحر الاحمر وعندها امر السلطان حاكم تلك الثغور بان يوفق بينها على سبيل المصالحة خوفا على فساد الطريق وذلك سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م[٥] . وذلك يدل على النشاط السياسي الذي بذله السلاطين المماليك من اجل تأمين طرق التجارة ليس من خطر الاعداء فحسب وانما من النزاعات الداخلية ايضا.

كما قامت مصر بتأمين رحلات تجارها في البحر الاحمر والبحر المتوسط (الشام) بشكل مضمون[٦] وذلك نظام دقيق لجوازات المرور ، فلم يكن احد باستطاعته ان يترك الناحية التي يقيم فيها الى ناحية اخرى من دون اذن من السلطات ، وكذلك لابد بتصريح او جواز للخروج من مصر . ويدرج في هذا الجواز كل من يرافق المسافر حتى ولو كانوا عبيده[٧] . ولهذا النظام فوائد عديدة للتجار وللحكومة فبوساطته تدون اسماء التجار واماكن اقامتهم ومواعيد دخولهم وخروجهم مما يسهل على الحكومة الاطمئنان على حياتهم وراحتهم كما يضمن صحة الضرائب التي تستوفي منهم[٨].

ب. الاهتمام بالعلاقات الخارجية:

ان مما ساعد على ازدهار تجارة مصر مع الهند هو ان سواحل البحر الاحمر كانت تدين لهم بالتبعية ولو اسميا طيلة مدة حكم المماليك ، وعمل عدد من السلاطين المماليك امثال

الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون (٦٥٨ –٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ –١٢٧٧م) على تأكيد تلك التبعية عن طريق اقامة علاقات طيبة مع سلاطين اليمن ، تلك العلاقات التي استمرت حتى عهد الدولة الرسولية في اليمن (٦٢٦–٨٥٨هـ/١٢٢٩–١٤٥٤م) حرصا على سلامة التجارة والتجار [٩] ومثل هذا الكلام يقال على سياسة المماليك تجاه بلاد الحجاز التي ظلت تدين بالتبعية لسلطان المماليك الذي يخطب له على منابرها باسم (حامي الحرمين)[١٠] حتى اصبحت مصر بفضل تلك السيادة البلد الاغنى في الدولة العربية الاسلامية بتجارتها مع الهند[١١].

فضلا عن ذلك فقد عقد المماليك عددا من الاتفاقيات التجارية مع مجموعة من الممالك الاسبانية والجمهوريات الايطالية التي كان الهدف منها تحقيق الربح المادي وتنشيط حركة التبادل التجاري معها[١٢] وساروا على سيرة اسلافهم الايوبيين فاقاموا عناصر تشرف على شؤون افراد الجاليات الاجنبية ومصالحها التجارية[١٣] . وقد اوردت عددا من المصادر نصوصا تشير الى ابلاغ السلاطين المماليك لنوابهم على الموانيء والمدن التجارية لحسن معاملة التجار والتودد اليهم[١٤] ومنها المرسوم الذي اصدره المنصور قلاوون سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م، ووجهه الى ملوك وسلاطين بلاد الهند واليمن والصين وتجارها ليحثهم على القدوم الى مصر واقامة علاقات تجارية معها[١٥] فيقول فيه"ومن يؤثر الورود الى ممالكنا ان قام او تردد فليعزم عزما من قدر الله له في ذلك الخير والخبرة ويحضر الى البلاد لا يحتاج ساكنها الى ذخيرة لانها في الدنيا جنة عدن لمن قطن ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ، فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين في الهند واليمن والصين لا يخشون فيها من يجور فان العدل قد اجار..."[١٦]. وذلك المرسوم ان دل على شيء فانه يدل على حرص المماليك على ضمان حرية تجارتهم مع الهند عبر الطريق البحري فضلا عن الاشادة بموقع مصر التجاري كوسيط في التجارة الدولية[١٧].

ج - سياسة المماليك مع التجار :

تقرب السلاطين المماليك من التجار وتوددوا اليهم وكانت طبقة التجار من اعلى طبقات المجتمع المملوكي ، وكان ترددهم الى البلاط دائما ومستمرا فهم اصدقاء السلاطين وحاشيتهم وهم على درجات في الاحترام لدى السلطان فمنهم " الجناب العالي ، والصدر الكبير ، والخواجكي ، وثقة الدولة وجمال الاعيان.."[١٨]. فكانت مراسلات السلاطين لهم لا تخلو من عبارات الاجلال والاحترام فهم دون شك اسهموا في نهضة البلاد وعمرانها بخاصة اولئك التجار المسالمين الذين ينفقون جزءا من اموالهم في الاعمال الخيرية[١٩].

هذا وكان من مظاهر النشاط التجاري في مصر والشام ومنذ العصر الايوبي بناء الخانات والفنادق[٢٠] لتكون محطات لاستراحة المسافرين ولايواء التجار ومبيتهم وذلك في المدن

والموانيء الرئيسية [٢١] وقد تابع المماليك تلك السياسة وبنوا فنادق متعددة تشهد لها مدن الاسكندرية ودمياط وغيرها وكانت التوصيات تأتي من السلاطين المماليك الى حكام الثغور والموانيء لتؤكد الحفاظ على راحة التجار في الفنادق وحفظها من التخريب والاذى ، تلك الفنادق التي خصص بعضها لاقامة التجار الهنود واليمنيين وخصص البعض الاخر للتجار الاوربيين[٢٢]. ومن الطبيعي ان تكون هذه الفنادق قد انشئت قرب الاسواق والاماكن التجارية وقد وجد في بعضها اماكن للصلاة والعبادة ، ومن ابرز الفنادق في العصر المملوكي فندق الفسطاط ، وخان الخليلي[٢٣].

فضلا عما سبق ذكره فقد اتبع المماليك سياسية اقتصادية تهدف الى جمع اكبر قدر ممكن من المال من دون النظر الى العواقب ففرضوا على التجار عددا من الضرائب غير الشرعية التي تؤخذ منهم فوق الحد المقرر لها على مجموعة السلع ، وهذا ما يسمى بالمكوس[٢٤]. فمثلا كانت نسبة الضرائب المفروضة على البضائع الواردة من الهند الى الاسكندرية ودمياط تصل نسبتها بين عشرة الى خمسة وثلاثين بالمائة فتدفع السفينة التجارية ضريبة تربو على اربعين الف دينار[٢٥].

كما جنت مصر من ضريبة العشر ارباحا طائلة حتى يقال ان ناظر جدة حمل سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م الى الخزانة المصرية ما يزيد على سبعين الف دينار ثم وصل هذا المبلغ سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م الى مائتا الف دينار[٢٦].

وبهذا نلاحظ ان نسبة الضريبة تتغير تبعا للظروف الاقتصادية وكمية البضائع والعرض والطلب كما يمكننا ان نستنتج ايضا ان سياسة المكوس التي فرضها المماليك والتي كانت سببا في الانتعاش الاقتصادي لمصر كانت قد حملت بين طياتها عوامل الاضمحلال والتدني في علاقاتها مع البلدان التجارية فنلاحظ ان تجارة المماليك تأرجحت في مدد مختلفة ما بين النمو والتقدم والازدهار وبين الانكماش والتأخر والانحطاط نتيجة لما فرضه السلاطين المماليك من مكوس عالية على التجارة الخارجية الامر الذي دفع عدد من تجار الهند ومجموعة من ارباب المتاجر الاوربية في جنوا والبندقية الى سحب قناصلها ووقف التعامل مع مصر تجاريا . وعندما احس المماليك بخطورة الامر بدأوا يغيرون قليلا من سياستهم فمارسوا سياسة اسقاط المكوس او تخفيضها واول من بدأ بها من المماليك هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ - ٧٤١هـ/١٣١٠-١٣٤١م) وذلك اقتداءا بالسلطان صلاح الدين الايوبي الذي اسقط المكوس عن مصر سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م وجعل تجارة مصر حرة[٢٧] فقام الناصر محمد بالغاء المكوس عن التجارة والبضائع والسلع في التجارة الداخلية والخارجية كالملح والسكر وتجارة الرقيق وخفض ضريبة المرور في النيل وسهل توريد السلع الاجنبية الى مصر وعاقب كبار الامراء والتجار

الذين امتنعوا عن تنفيذ هذا المرسوم ، كما اعاد الى الخلافة السلطانية كل ما جمع ظلما وتعسفا من الاموال فأنتعشت البلاد في عهده ايما انتعاش [٢٨]. ولم تقتصر سياسة الناصر محمد على مصر فحسب بل طبقها على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ومتاجرها وذلك عندما ذهب للحج في ولايته الثالثة سنة ٧٣٢هـ /١٣٣١م فجعل سعر اردب القمح خمسة دراهم والشعير ثلاثة دراهم[٢٩].

وعزز السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤ –٨٠١هـ/١٣٨٢ –١٣٩٩م) من السياسة نفسها فاسقط الكثير من المكوس عن التجار اوقات الازمات وفرح الناس بها كثيرا[٣٠]. ومن جانب اخر فقد اعتنى السلاطين المماليك باختيار نظار الدواوين عناية فائقة وبخاصة اولئك الذين يأخذون الضرائب بانتظام من التجار الواردين الى الموانيء المملوكية . وقد اورد ابن مماتي تعريفا بمستوى الضرائب قائلا : "هذا كاتب يكون صاحب مجلس في الديوان يطالب المستخدمين فيما يجب عليهم رفعه من الحساب في اوقاته وينبه متولي الديوان على ما يجب استخراجه من المال في اعيانه ويقيم الجرايد ويقابل بكل ما يرد عليه من حساب ويستوفيه ويخرج ما يجب تخريجه فيه"[٣١].

ونستنتج من ذلك تعدد مهام مستوفي الضرائب وجهده في استخلاص الضريبة مع الاشارة الى دقة عناية الدولة في اختياره وثقتها به ، ومن ابرز نظار الدواوين في العهد لمملوكي الامير سعد الدين بن ابراهيم بن المرة الذي ارسله السلطان برسباي (٨٢٥-٨٤٢هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) سنة ٨٣١ هـ /١٤٢٨م لاجل ضرائب تجارة الهند في ميناء جدة فقام باعمال عمرانية واسعة وبنى فيها جامعا وعندما لاحظ السلطان هذا الاهتمام منه بادر بارسال قوة عسكرية لدرء الاخطار المحيطة بجدة وحمايتها من السلب والنهب[٣٢]. وكان مستوفي الضرائب يمثل السلطة المملوكية في منطقة حكمه وينفذ الاوامر والتعليمات الصادرة اليه من الناحية الادارية[٣٣].

ثانيا: الهند . سياسة الهنود التجارية :

لم تختلف الظروف والسياسة الاقتصادية التي اتبعتها الهند في سبيل تيسير تجارتها واستغلال مواردها كثيرا عنها في مصر ، فقد اهتم سلاطينها بالتجارة والتجار [٣٤] معا واقاموا علاقات تجارية وثيقة مع بلدان سواحل البحر الاحمر والمحيط الهندي كافة والدليل على ذلك هو ان الهند كانت اول من استجاب الى المرسوم الذي اصدره السلطان المنصور قلاوون ، فبعد سنوات قليلة من اعلانه جاءت الى مصر سفارة من الهند تطلب اقامة العلاقات التجارية بين البلدين لتمهد لنشاط تجاري واسع بينهما[٣٥]. كما اهتم السلاطين الهنود بالتجار وسياسة التعامل معهم فقد تقربوا اليهم بالرعاية والعناية التامة بخاصة من اشتهر منهم بالامانة والاخلاص ، وعن

ذلك فقد قدر لنا الرحالة ماركوبولو في رحلته سجايا التجار الهنود تقديرا حسنا اذ قال عنهم:"انهم افضل وانبل ما يمكن فهم لا يكذبون وان كانت حياتهم متوقفة على الكذب"[٣٦].

ومن جانب آخر فان مصر لم تكن وحدها تقيم الفنادق والخانات لاستقبال المسافرين والتجار بل كان سلاطين الهند الاسلامية يلقون بالمثل التجار المصريين وغيرهم ، الذين يفدون الى ديارهم ويلقون عندهم العناية والرعاية ، فقد ذكر ابن بطوطة ان بلاد الهند آمن البلاد واحسنها حالا للمسافرين فاذا كان معهم الاموال الكثيرة فلا يخافون عليها ، وترتب على ذلك ان يكون لهم فندق يسكن فيه جماعة من الفرسان ومدير للفندق ، فاذا جاء وقت الليل جاء المدير ومعه كاتبه ليدون اسماء من يبيت به من التجار ، وكان من عادة اهل الهند ان يضيفوا زائرهم ثلاثة ايام اكراما لسلطان الهند وبالمقابل كان التجار يعطون ضريبة تسمى (حق بندر المرسى) للسلطات[٣٧].

المبحث الثاني : الثوابت التجارية

اولا : طرق التجارة وموانئها

شهدت التجارة مع الهند انتعاشا اضافيا اثر تولي المماليك الحكم في مصر سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، ومع انتهاء الحروب الصليبية اصبح الاوربيون شديدي الحرص للحصول على منتجات الشرق ، الامر الذي اعاد طرق التجارة المتبادلة في البحر الاحمر والبحر المتوسط والمحيط الهندي الى ما كانت عليه قبل القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد في النشاط والحركة[٣٨] وكان من اهم الطرق التجارية الموصلة بين مصر والهند : الطريق البحري المعروف الذي يأتي من سواحل الهند ويستمر حتى يصل موانيء البحر الاحمر (القلزم) ومن هناك تنزل السفن حمولتها في ميناء عيذاب[٣٩] حيث تنقل البضائع على ظهور الجمال التى تتهادى في مشيتها لمدة ثلاثين يوما لتصل الى شواطيء النيل ثم الى القاهرة ومنها الى الموانيء المصرية[٤٠].

والطريق الاخر يأتي من الصين فالهند ثم الى الخليج العربي حيث يتفرع الى البصرة وبغداد ثم يتجه في اتجاهين شمالا الى ديار بكر ، وغربا الى دمشق ، ومنها الى الموانيء المملوكية على البحر المتوسط ثم يسير بمحاذاة الساحل الى غزة ويعبر الصحراء الى القاهرة فضلا عن ذلك كان هناك طريق آخر يبدأ من بولاق – القاهرة ويستمر بالنيل جنوبا الى ميناء قوص[٤١] ومنها شرقا الى عيذاب على البحر الاحمر ثم يدخل المحيط الهندي والسواحل الهندية، الا ان هذا الطريق بطل استخدامه منذ اوائل القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد لطوله وكثرة تفرعاته[٤٢].

وهكذا كان الطريق الاول (طريق البحر الاحمر) هو الاساس في التجارة بين مصر والهند وربما كان هذا الطريق معقدا وصعبا لكنه كان اقصر الطرق وآمنها[٤٣]. وبعدما كانت السلع والبضائع الهندية تصل الى موانيء القاهرة ينقل بعضها الى الموانيء الايطالية بعد ان تجتاز جبال الالب وتنحدر الى وادي الراين لتصل الى ميناء بروجBroach ملتقى تجار اوربا[٤٤].

وبذلك استطاعت مصر ان تحافظ على تجارتها مع الهند واوربا وتحتفظ بالوقت نفسه باليد الطولى في حروبها مع الصليبيين وتظل مركز الثقل في التجارة الدولية[٤٥]، لذلك حاول المماليك الابقاء على طرق التجارة مع الهند واسرارها وقفا عليهم وعدم تسربها الى غيرهم فحظروا على جميع السفن غير الاسلامية من القيام باي نشاط بحري في البحر الاحمر متذرعين بالحرص على سلامة وحماية الاماكن الاسلامية المقدسة ، وانزلوا اشد العقوبات بالسفن التي تتعدى ذلك الحضر وادى ذلك الى ان اصبحت الملاحة في البحر الاحمر حكرا على السفن الاسلامية والصديقة[٤٦].

ونظرا لوقوع حدود الدولة المملوكية على سواحل البحر الاحمر والبحر المتوسط فقد زخرت بعدد من الموانيء والمرافيء التجارية لتكون محطة لاستراحة التجار والسفن ولتكون ساحة للتبادل التجاري وعرض السلع، فضلا عن الموانيء المذكورة كانت موانيء الاسكندرية[٤٧] ودمياط[٤٨] هي الوجه البحري للتجارة مع اوربا ، وموانيء مصوع وسواكن فهي تختص بنقل تجارة الحبشة وبلاد النوبة [٤٩].

ومن موانيء البحر الاحمر الاخرى ميناء القصير الذي يقع من جهة الشمال عن عيذاب وتصله القوافل شرقا من الصحراء حيث تستغرق سبعة عشر الى عشرين يوما[٥٠] ، ثم ميناء الطور جنوبي غربي شبه جزيرة سيناء حيث تأتيه السلع من جدة[٥١] وعدن[٥٢] وزادت اهميته بعد خراب ميناء عيذاب سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م فأصبح مركزا للسلع الآتية من الهند[٥٣]. وفضلا عن تلك الموانىء الرئيسة فقد ارتبط بها عدد من الموانىء والمرافىء الفرعية الاخرى والتي ادت دورا في العلاقات التجارية بين مصر والهند كميناء ينبع كثير العمائر والاسواق وميناء ايلة على الطرف الشرقي بالبحر الاحمر في مقابلة القلزم[٥٤].

اما ابرز موانىء الهند التجارية فهي الموانىء الواقعة على ساحل المحيط الهندي الطويل لاسيما ميناء كوجرات Gujarat وهي من اهم المناطق الاسلامية البحرية، إذ كان التجار العرب يترددون اليها منذ اقدم العصور ويعرضون بضائعهم في اسواقها الكبيرة. وبالقرب من كوجرات يقع ديو Diu الشهير الذي اكتسب اهمية كبرى في التجارة نهاية العصورالوسطى الاسلامية حيث استوطنت فيه جاليات عربية، وكان اغلب سكانه يعملون في التجارة، وكان يصله من بلاد

المماليك الذهب والفضة والاسلحة والاصواف الايطالية ومجموعة من المواد الاخرى[٥٥]. وعلى ذلك الساحل الطويل هناك ميناء كنباي Gambay الذي يستقبل السفن المصرية محملة بالخيول والقطن وعدد من المنسوجات لتعود تلك السفن بالتوابل والاحجار الكريمة وغيرها من البضائع الهندية[٥٦].

كما ضم ذلك الساحل الكثير من المراسي والمدن التجارية الاخرى لاسيما كاليكوت Calicut [٥٧] وسندان Sindan ونلهورة Nalhoura وسومنات Somnat وغيرها[٥٨] .

ثانيا : اسلوب التعامل التجاري :

اشارت المصادر الى وجود طرائق متعارف عليها لتقييم ثمن البضاعة على الرغم من وجود نظام نقدي تجري على اساسه العمليات التجارية[٥٩]. وبما ان التبادل التجاري قام في بداية امره على استخدام المعادن النفيسة سواء كانت عملات ذهبية ام فضية فإن ذلك لم يكن جديدا في تجارة العصور الوسطى[٦٠]. وفي مصر استخدمت الدولة المملوكية النقود الكاملية نسبة الى الملك الكامل الايوبي ولمدة طويلة حتى ولي الملك الظاهر بيبرس السلطنة فضرب الدراهم الظاهرية وجعل كل مائة درهم تحتوي على سبعين بالمائة ذهبا وثلاثين بالمائة نحاسا وجعل على وجه العملة رنكة أي شعار وهو يمثل صورة سبع . وظلت هذه الدراهم فضلا عن النقود الكاملية تستخدم في مصر حتى سنة ٧٨١هـ/١٣٨٢م[٦١]. وقد تغيرت العملات المملوكية تبعا لكل سلطان سك عملة البلاد بأسمه فعندما ولي الظاهر برقوق السلطنة ضرب العملة بأسمه، كما سك السلطان الاشرف برسباي الدنانير الاشرفية وهكذا[٦٢].

ومن جانب آخر فقد ظهرت الحاجة في بعض الاحيان بالعودة الى نظام المقايضة في البيع والشراء بخاصة في مناطق صعيد مصر، واوقات الازمات وهذا ما اطلق عليه بالتعامل بالكودة[٦٣] ، ولم تقتصر هذه الطريقة في التعامل على مصر وحدها بل كان بعض اهل الهند يقابلون عددا من المواد والسلع بالمواد الاخرى، كما استخدمت التوابل والفواكه والمعادن غير النفيسة اساسا لهذا التعامل وكان التجار ايضا في مصر يبادلون بضائع الهند والصين بمنتوجات مصر والحبشة الواردة الى موانئهم ، واستمر ذلك حتى سنة ٧٧٠هـ/١٣٧١م[٦٤] . وكان التعامل بالنقود الذهبية معرضا للغش والتزوير في كثير من الاوقات، فكان السلطان يعاقب جماعة من المدلسين الذين يغشون في العملة فيقطع ايديهم ، كما حدث في عهد السلطان قايتباي (٨٧٣-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٥م) سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م عندما قبض على مجموعة منهم وعاقبهم ثم اصلح العملة[٦٥] .

اما في بلاد الهند فقد كانت عملة البلاد الاساسية تسمى (تنكة)[٦٦] وكان التعامل بها قائما طيلة القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد . فضلا عن مجموعة من العملات التي سكها سلاطين الهند الاسلامية بأسماء الخلفاء العباسيين في القاهرة كما مر بنا في الفصل الثاني.

ثالثا : السفن :

اما ما يتعلق بالسفن التجارية فقد اختلفت تسمياتها واشكالها وطريقة صناعتها بحسب طبيعة البحار التي تبحر فيها، فكانت سفن المحيط الهندي والبحر الاحمر كبيرة[٦٧] وتتكون من دفة واحدة وشراع واحد وليس فيها سطح ولكن مجرد غطاء ينشر فوق الحمولة بعد شحنها[٦٨]. وقد استخدمت طريقة مختلفة في صناعتها إذ كانت الالواح تخاط بحبال من ليف النار جيل وتشد بإحكام الى ان تسد الثغرات جميعها وتتخلل الالواح بعيدان النخيل ثم تطلى بدهن الخروع او دهن القرش (الحوت) وهو الافضل لسد الفتحات[٦٩] ، ولم تكن المسامير تستخدم في بناء هذه السفن (على عكس سفن البحر المتوسط) "وذلك خوفا من تآكلها بماء البحر المالح"[٧٠] . وبما ان البحر الاحمر يحتوي على صخور وتيارات بحرية واعاصير فقد تطلب ذلك تغييرا في بناء السفن التي تسير فيه، فكان الخطر الوحيد الذي تخشاه السفن ذات الاحجام الكبيرة في مياه البحر الاحمر والمحيط الهندي هو تقلب الظروف الجوية لذلك لم تكن السفن تبحر حتى تتأكد من الظروف الجوية المساعدة . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الرحلة الى الهند من السواحل العربية ممكنة طوال العام حتى يمكن القيام برحلتين ذهابا وايابا الى الهند[٧١]. وتبدأ الرحلة الاولى في شهر آذار من السنة ثم تبدأ الرحلة الثانية في شهر ايلول[٧٢].

وعن طبيعة الملاحة في البحر الاحمر يقول الرحالة ابن بطوطة : "هذا البحر لا يسافر فيه في الليل لكثرة احجاره وإنما يسافرون عند طلوع الشمس الى غروبها ويرسون وينزلون الى البحر فإذا كان الصباح صعدوا الى المراكب ... "[٧٣] لذلك احتاجت تلك السفن انواعا معينة من الاخشاب امتازت بصلابتها لتقاوم التيارات البحرية القاسية[٧٤] .

وعلى الرغم من استعانة الربان والسفانين بالنجوم للتأكد من الطريق الذي يسلكونه إلا انهم استخدموا البوصلة في طريقهم ، فضلا عن معرفتهم بإنتظام هبوب الرياح الموسمية[٧٥]. وبذلك يتبين ان الطريق البحري وموانئه وسفنه آنذاك لا تكاد تختلف كثيرا عما كانت عليه ابان المدد الاسلامية السابقة[٧٦].

رابعا : اهم الصادرات والواردات :

ان دور مصر كوسيط تجاري بين الهند واوربا يبين قلة ما كان يصدر منها الى الهند فكان لا يتعدى على مجموعة من المنتوجات الزراعية والمصنوعات ، لا سيما القطن والكتان والمنسوجات الحريرية إذ كانت صناعة النسيج في مصر من اهم الصناعات التي لقيت رواجا عالميا فكان ابناء الطبقات الراقية في الهند واوربا يرتدون الملابس الحريرية المنتجة في مصر[٧٧]. وقد صدرت انواعا من الخيول فضلا عن ما كان يصلها من عدد من المناطق كالذهب والمعادن النفيسة والاسلحة[٧٨] ومجموعة القراطيس التي اشتهرت بها مصر فضلا عن مواد اخرى كمعدن الزبرجد ودهن البلسان[٧٩] .

اما الواردات المصرية ، فيبدو ان البضائع الهندية كانت عاملا مساعدا على رواج التجارة والتنافس البحري بين الامم من اجل الحصول عليها بأنواعها المتميزة. وقد تنوعت هذه البضائع لتمتع ارض الهند بتوافر الكثير من المعادن والجواهر والمنتجات الزراعية التي زخرت بها ايضا المتاجر الكبيرة التي اقترنت بأسمها[٨٠] ويقف في مقدمتها :

آ. التوابل :

وتعد من اهم ما تنتجه ارض الهند بكميات ضخمة وفي مختلف الممالك الهندية لا سيما في سواحل مليبار إذ تتوافر فيها اشجار الفلفل العالية وتتدلى عناقيدها على الاغصان حتى إذا هبت الريح سقطت على الارض فيجمعها الناس وعلى الرغم من ان حكام عدد من المناطق التي تتوافر فيها التوابل كانوا من الهندوس إلا ان ذلك لم يمنع من قيام صلات تجارية عميقة مع التجار المصريين الذين نقلوا بأنفسهم كميات كبيرة من التوابل الى موانىء عدن والاسكندرية[٨١] . ومنذ القرن الخامس للهجرة / العاشر للميلاد اضيف الى بلاد الاسلام اجزاء كبيرة من بلاد الهند (الفتح الغزنزي) ذات الشأن التجاري العظيم حتى اصبحت تجارة الشرق اكثر توسعا واهمية في الاقتصاد العالمي فصارت اغلب موانىء الهند في كوجرات والبنغال تحت حكم المسلمين[٨٢] .

تتألف التوابل الواردة من بلاد الهند من مواد مختلفة منها : الفلفل بأنواعه[٨٣] والزنجبيل[٨٤] والكافور [٨٥] والقرنفل[٨٦] + والخولنجان[٨٧] وغيرها . وعلى الرغم من تعددها فإن الفلفل والزنجبيل ركز عليهما النشاط التجاري وحظيا بإهتمام استثنائي في العقود التجارية، وكان الفلفل يفرز مثل بقية انواع البهار ، لفصل النوع الجيد من اسقاطه التي تقل قيمتها . وقد تأرجحت كمية الفلفل المعروضة في اسواق القاهرة والاسكندرية وربما يعود ذلك الى مدى توافره في مصدره الهندي لأننا نفتقر الى معطيات الكميات الجملية المردة من الهند ولا نملك معطيات عما يتركه المماليك لاستهلاكهم الخاص ، او ما يحول الى موانىء بلاد الشام ، ولكنها كانت كميات ضخمة عموما[٨٨].

وهكذا كانت تجارة التوابل الهندية من العوامل المهمة في ازدهار الاقتصاد ، إذ درت ربحا هائلا للطرفين بوصفها سلعا يشتد طلب الناس عليها جميعا[٨٩] . وقد كانت لهذه التوابل خزانة خاصة في مصر تسمى بـ(خزانة التوابل) وخصص لها ناظر ينظر بأمر صادرها وواردها[٩٠] . وكان انقطاع او ندرة وصول هذه التوابل يسبب ضائقة اقتصادية شديدة وركودا تجاريا لمصر والمتاجر الاوربية على حد سواء ، فمثلا في سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٦م قل وجود الفلفل في القاهرة حتى بلغ سعر الرطل منه ستة واربعين درهما وعندما انفرجت الضائقة بقدوم الحجاج عن طريق عيذاب نزل سعره الى خمسة دراهم للرطل الواحد[٩١] .

وان كانت نوعية هذه التوابل وجودتها مثار اعجاب تجار مصر والاسكندرية فإن اسعارها العالية لم تكن موضع دهشة احد في اسواق اوربا فقد استخدموها لحفظ الاطعمة خلال فصل الشتاء الطويل كما ازداد استخدامها في صناعة المراهم الطبية ، فهي للتطيب والتطبب ، وعن اهمية التوابل يقول احد المستشرقين : "لعله ليس للفلفل الآن اهمية كبيرة بيد انه كان في العصور الوسطى يقف مع قدم المساواة مع الاحجار الثمينة ، فإن الناس كانوا يجابهون مخاطر البحار ويقاتلون ويموتون في سبيل الفلفل"[٩٢] .

ب. مواد الزينة والبخور :

تأتي هذه المواد بالمرتبة الثانية من حيث استيرادها من الهند ، وكثر استخدامها عند اهل القرون الوسطى اعتقادا منهم بأنها تطرد الارواح الشريرة ، ومن هذه المواد : شجر العود المنتشر في مناطق كثيرة من بلاد الهند حيث كان يستخدمه السدنة في المعابد للتقرب من الآلهة[٩٣] ولا تقتصر استخدامات العود على التبخر فحسب بل انه له استخدامات طبية متعددة واجود انواعه العود المندلي ، والعود القماري[٩٤] .

ومن المواد الاخرى التي تستخدم للتطيب والتعطر المسك الهندي الذي يجلب من هضبة التبت[٩٥] ثم العنبر[٩٦] بأنواعه المتعددة واصنافه المختلفة واجوده العنبر الشحري وهو ما قذفه بحر الهند الى ساحل الشحر من ارض الهند[٩٧] .

ج. مواد اخرى متنوعة :

اشارت عدد من المصادر الى كمية كبيرة من المواد القادمة من الهند التي لقيت رواجا في اسواق القاهرة والاسكندرية، وشملت هذه المواد انواعا جيدة من الاخشاب كالابنوس والساج والصندل التي كانت تصل دار صناعة السفن في السويس ثم انواعا متعددة من السيوف الهندية[٩٨] . فضلا عن ما تميزت به الهند من تصديرها لانواع معينة من الحيوانات الجميلة

كالنمور والفيلة والببغاوات، وقد شاهد ماركوبولو البضائع الغريبة والحيوانات الجميلة في موانىء القاهرة حيث توزع منها الى انحاء العالم كافة(٩٩) .

كما استوردت من الهند كميات من الاحجار الكريمة والجواهر التي اقتناها الملوك والسلاطين لعظم ثمنها وخفة محملها والمباهاة بها كالدر والياقوت والمرجان والزمرد وغيرها(١٠٠). وقد وجد من السلاطين المماليك من تباهي بلبس خواتيم مطعمة بالياقوت والفيروز والزمرد وتزين بالعطور القادمة من الهند(١٠١).

ولاهمية المنتجات الهندية في التجارة فقد اورد القزويني وصفا شعريا لها فقال :

لعمري إنها ارض اذا القطر بها ينزل ... يصير الدر والياقوت لمن يعطل
منها المسك والكافور والعنبر والمندل ... واصناف من الطيب ليستعمل من يتفل
وانواع الافاوية وجود الطيب والسنبل ... ومنها العاج والساج ومنها العود والصندل
وان التوتيا فيها كمثل الجبل الاطول ... ومنها الببر والنمر ومنها الفيل والدغفل
سيوف مالها مثل قد استخنت عن الصيقل ... وارماح اذا ما اهتز لها الجحفل
فهل ينكر هذا الا الرجل الاخطل(١٠٢)

وهكذا يتضح من خلال ما سبق ان الميزان التجاري كان يميل لصالح الهند نظرا لحاجة دول الشرق والغرب لمنتجاتها .

المبحث الثالث : دور تجار الكارم في العلاقات المصرية الهندية

كارمية : Karimi

وردت الكلمة في المصادر العربية على اشكال متنوعة منها (كارمي ، اكارم ، كارم) ليست هناك كلمة في اللغة العربية تحمل معنى يتعلق بنشاط الكارم التجاري ، فخضعت الكلمة لدراسات عديدة فأختلف المؤرخون في تحديد معنى للتسمية(١٠٣) وعلى أية حال فهم مجموعة من التجار من قوميات مختلفة ظهروا اواخر العصر الفاطمي واشتهروا بجلب البضائع النفيسة من الهند وبخاصة التوابل وتفردوا ببيعها باسواق مصر ، واول اشارة في المصادر العربية تدل على ظهورهم يقدمها ابن ايبك الدودار عند حديثه عن تعرض سفن الكارم لهجوم قطاع الطرق سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م في العصر الايوبي في حين ان نشاط تجار الكارم بلغ ذروته في العصر المملوكي اذ اقترنت تجارة المماليك بإسمهم لما جلبوه من بضائع بهروا الشرق والغرب معا بها، حيث توحدت قواهم التجارية دون أي تمييز عنصري بينهم وخلقوا نزعة تجارية منعت التجار الفرديين (العاديين) من منافستهم في تجارة الهند(١٠٤) . وغالبا ما تحتاج التجارة الى قوائم مكتوبة خاصة اذا كانت واسعة تمتد الى مختلف الاماكن البعيدة، ولا نستطيع ان نعرف احوال تجارة مصر والهند في العصور الوسطى من دون مساعدة وثائق ترسم لنا صورة توضيحية عن تلك التجارة(١٠٥) .

وعلى هذا الاساس فقد اشتهرت في تجارة العصور الوسطى وثائق الجنيزا القاهرية Geniza (١٠٦) التي كتبت بين (٣٤٥-٦٦٣هـ/٩٦٥-١٢٦٥م) وكشفت لنا عن معلومات وفيرة فيما يتعلق بتجارة الهند وكانت اغلبها عبارة عن خطابات موجهة من التجار الى اهاليهم في مصر والهند واليمن، وقد كتبت بأيدي تجار من بلدان مختلفة(١٠٧) . ومما يجعلنا نعتقد بوجود صلة قوية بين وثائق الجنيزا ومصطلح الكارم منذ ظهوره قديما وحتى اضمحلاله نهاية العصور الوسطى الاسلامية هو ان هذه الوثائق كتبت ايضا في اماكن عديدة خارج مصر لا سيما العراق واليمن والهند وبعضها جاء بآراء شرعية من اليهود القاطنين في تلك المناطق(١٠٨).

وعلى أية حال فقد وجد في هذه الوثائق ما يدل على سيطرة تجار الكارم على جميع الانشطة التجارية في مصر والهند لأكثر من ثلاثة قرون فنلاحظ التاجر الكارمي وهو في الهند يكتب لأسرته في مصر ويخبرهم بأنه سيجلب لهم سلعا وبضائع نادرة ما في الكارم مثلها(١٠٩) دلالة على تحقيق استقلالهم تحت نفوذ دولة الماليك فأعطوا شكلا بارزا للحياة السياسية والاقتصادية في مصر المملوكية(١١٠). ومما يدل على حجم تجارتهم ما ذكره ابن جبير عن احمال الفلفل في عيذاب والتي توازي التراب قيمة لكثرتها(١١١) . ولم تقتصر تجارتهم على جلب التوابل فحسب، بل شملت المنسوجات والاخشاب والعطور ومواد اخرى متنوعة(١١٢) .

وعندما ادرك السلاطين المماليك دور تجار الكارمية في تنشيط الروابط بين مصر ومناطق متعددة من الدول لا سيما الهند من خلال نقلهم لاخبار تلك الدول التي مروا بها اثناء تجارتهم(١١٣) قاموا بتخصيص الاساطيل البحرية لحمايتهم من قطاع الطرق في الثغور والموانىء(١١٤) . كما انشأت لهم مراكز يجتمعون بها لحل مشاكلهم وتصفية عقودهم التجارية في مختلف المدن التجارية في مصر، ومن ابرزها فندق الكارم(١١٥) وسقيفة ابن العجان المطلة على النيل(١١٦). كما كان لهم رئيس يسمى شهبندر التجار او الصدر الذي كان ينتخب من بين اغنى التجار واكرمهم خلقا، وقد اهتمت المصادر بذكر رؤساء التجار الكارمية بمختلف جنسياتهم وعددت مآثرهم الجليلة(١١٧). وكانت ارباحهم كبيرة بالمقارنة مع ارباح التجار العاديين في تلك المدة فإذا قرأنا نصاً واحداً من نصوص وثائق الجنيزا سنحكم على ان ارباحهم كانت خيالية او عالية(١١٨) ، وليس ادل على ذلك ما جباه ناظر جدة من سفن الكارم خلال سنة واحدة وقدر بسبعين الف دينار، او مساهمتهم في حل الازمات السياسية والاقتصادية التي تعرضت لها دولة المماليك في اوقات الحروب والنكسات(١١٩)، بل حتى انهم قدموا الهدايا الثمينة الى السلاطين ووثقوا علاقتهم مع سلاطين مصر والهند وصاروا طبقة مستقلة بذاتها(١٢٠) وبناءا على ذلك فقد خصص المماليك لهم ناظرا خاصا يدعى (مستوفي البهار والكارمي) يهتم بتحصيل ما يصل من التوابل والبضائع الاخرى التي يجلبها التجار الكارميون(١٢١) .

لقد احصت المصادر ما يقرب من مائتي شخصية من تجار الكارم ومن اسر مختلفة كالسواملي والكويك والدماميني والخروبي(١٢٢) وغيرها وكانت تجارتهم وراثية إذ يتعلم الابن الاصول التجارية من خلال تجواله مع والده ثم يبدأ بإدارة اعماله ويصبح تاجرا محترفا(١٢٣).

ومن هؤلاء التجار :

١. ابن العدل رضي الدين المصري الواسطي التاجر السفار ، ولد سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م وسمع صحيح مسلم ونشر علمه وفقهه في مصر ودمشق وعدن وخلف اموالا عظيمة بالاسكندرية، توفي سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م(١٢٤).
٢. التاجر الكبير ابو سويد التكريتي، ذو الاموال الكثيرة وكان محترما لدى السلطان الظاهر بيبرس إذ كان يجله ويكرمه لأنه قد ازدى اليه جميلا قبل ان يتولى السلطنة، وكان كثير البر والصدقات، توفي سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م(١٢٥).
٣. التاجر الاسكندري عز الدين بن عبد العزيز بن منصور ، كان ابوه يهوديا ثم اسلم فسافر وعبر الهند وقدم مصر ببضاعة قيمتها اربعمائة الف دينار وكان له بر وصدقات، وكان سفارا ورحالا وسبق ابن بطوطة في زيارة الهند بخمسين سنة، توفي سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م(١٢٦) .

٤. التاجر نجم الدين عبد الرحيم بن القاسم الرحبي، باني التربة المشهورة المزة والتي جعل لها مسجدا واوقافا وكان مرضيا عند السلاطين والامراء جميعهم ، توفي سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م[١٢٧] .

٥. محمد بن مسلم بن احمد الباليسي ، كان ابوه حمالا ثم كثر ماله فصار من كبار التجار في مصر ، يرحل عاملوه الى الهند والحبشة والتكرور ويجلبون له الارباح الكثيرة حتى فاقت شهرته ومكانته المالية والتجارية حدود الدولة المملوكية ، ويتضح ذلك مما قالته عدد من المصادر عنه من انه كان اعظم تجار الكارم مالا ولم يعرف احد في مصر اكثر منه مالا وكان اجماع الناس على ذلك حتى قال تجار الهند : "ليس في بلادنا من هو اكثر مالا منه غير تاجر كافر يقاربه بالمال" ، توفي سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م وورثه ابناءه فكانت حصة الذكر منهم مائتا الف دينار[١٢٨].

٦. التاجرعلي بن عبد العزيز بن احمد بن محمد بن علي المتقي الصلاح المصري ، ويعرف بالخروبي وهو من اعيان التجار بمصر، حج مرات عديدة وكان ذا مروءة وشهامة، توفي سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠١م[١٢٩] .

٧. التاجر محمود بن محمد بن قطب، احد تجار الهند وكان سفيرا لسلطان كلبركة الى البلاد العربية الاسلامية ، توفي في مكة سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م[١٣٠] .

٨. التاجر ابو القسم بن محمد بن علي المصري الاصل، استقر في مكة وورث التجارة عن ابيه الذي خلف اموالا كثيرة ونماها في التجارة الكارمية وتركها لبنيه بع موته ، توفي سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م[١٣١] .

٩. التاجر بن رواحة، عرف بغناه الواسع وتجارته الكبيرة وكان يملك خزانة للسلاح ، وكان يستطيع تجهيز مائة جندي[١٣٢] .

١٠. التاجر محمود بن احمد الخواجا الكمال الكيالي، يقال له ملك التجار ، لقي ابن حجر العسقلاني في القاهرة سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م واخذ عنه ثم زار كلبركة من بلاد الهند واختص بها وثبت[١٣٣].

١١. حسن بن ابراهيم البدر بن البرهان المناوي الاصل القاهري ، التاجر بن التاجر ، ويعرف بابن عليبة (مصغر علبة) ، حفظ القرآن الكريم واقبل على التجارة وكان حاذقا فيها، توفي سنة ٨٨٩هـ/١٤٨٤م في بولاق[١٣٤].

١٢. علي بن عبد الرحمن النضاري، احد تجار الكارم اليمنيين، وكان له مال متكاثر وعدة سفن تجري في بحر الهند وتأتيه بأصناف البضائع الهندية، وكانت له دائرة متسعة جدا من التجار ، وذا احسان الى الناس، توفي سنة ٩٦٦هـ/١٥٥٨م[١٣٥] .

عوامل ضعف التجارة المصرية الهندية :

وصلت عن طريق البحر الاحمر والمحيط الهندي البضائع النادرة الى مصر من الهند، وتهافت الاوربيون على شرائها. فأصبحت مصر مركزا تجاريا عظيما وقد قال احد المستشرقين في ذلك: "إن من له السيادة على القاهرة يمكنه ان يسمي نفسه ايضا رب العالم المسيحي، وسيد ورب جميع الجزر والبلاد التي تنتج التوابل فلا يمكن استيرادها وبيعها إلا من بلد السلطان لأن القاهرة تتمتع بموقع متميز ... لذلك ينبغي ان نكون في علاقات جيدة مع السلطان اذا اردنا ان نبيع ونشتري او اردنا الذهاب الى المقدس للحج"(١٣٦) .

وكان لابد لهذه التجارة ان تجعل من مدن مصر التجارية مدنا عظيمة ذات سمعة عالية وتجعل اسواقها من احسن وابهى ما يراه المرء إذ تجد فيها كميات هائلة من البضائع الهندية لاسيما التوابل(١٣٧) .

لقد كان دور السلع يوازي في اهميته دور الافكار والمبادىء، فوجدت طبقة من التجار والعامة من اهل مصر قدرا من الراحة والاطمئنان في الحياة . ومن هذا المعنى استطاعت القاهرة ان تنعم بمستوى مرتفع من المعيشة(١٣٨) . وبالمقابل كان لتشجيع سلاطين الهند الاسلامية للتجارة مع مصر اثره في جعل موانىء الهند لا سيما كوجرات ومليبار، تحصل على ثراء كبير مكنها من الدفاع عن موقعها ومكانتها(١٣٩) . ولكن سرعان ما انتكست تجارة المماليك العظيمة جراء سياسة عدد من السلاطين الذين احتاجوا الى الاموال الكثيرة لتأمين حياتهم ودولتهم فغرتهم الارباح الكبيرة لتجارة الهند فطبقوا نظاما احتكاريا قاسيا على البضائع الهندية وسوغوا سياستهم هذه بدعوى من مرور البلاد بأزمات سياسية وحالات من المجاعة والقحط مما ادى الى غلاء اسعار المواد والبضائع(١٤٠) . ففي سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م اصدر السلطان الاشرف برسباي مرسوما الى الثغور كافة يأمرهم بأن لا ينصب قبان لوزن بضاعة ما لأحد من التجار ومنعه من البيع والشراء في البهار وجعلها حكرا له، والزم تجار اوربا بالشراء بالسعر الذي يحدده هو فكان ان جعل الحمل من التوابل يباع بمائة وعشرين دينارا بعد كان يباع بثمانين دينارا(١٤١) .وبهذا كرس السلطان برسباي جل اهتمامه على تجارة الهند واستخلص منها اربحا جديدة واضافية(١٤٢) . ويبدو ان السلطان برسباي لم يكن مقتنعا بما تجبيه بلاده من ضرائب التجارة الهندية ولذلك فقد بحث عن مصدر جديد اخر جعله يصبح فيما بعد السلطان الوحيد الذي يملك اموالا كثيرة ، وفعل ذلك لما لم يجد موردا اخر يفرض عليه نوعا من الضرائب ، فلم يفرض مثلا شيئا على القطاع الزراعي او الصناعي في دولته، وربما فعل ذلك ليدخل التاريخ كأغنى سلطان في الدولة المملوكية(١٤٣).

وقد جاءت سياسة الاحتكار هذه وقت كانت فيه احوال الناس والعامة بديار مصر والشام متدنية لقلة مكاسبهم ، وقد شمل الخراب الكثير من مدن مصر واريافها وبلغ من شدة فقرهم انهم كانوا يبيعون بالغلال والمواد الاخرى سلعة بسلعة (العودة الى نظام المقايضة)وذلك لعدم وجود الذهب والفضة والاموال التي احتكرها السلطان(١٤٤). وفي الواقع مثلت هذه السياسة الاحتكارية ردة حضارة الى الوراء فاضطربت احوال الناس خلاف ما اعتادوا عليه من طبيعية كريمة بعد حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث الاوضاع الاقتصادية المزدهرة(١٤٥).

ومن جانب اخر لم تكن السفن الهندية او الاوربية مستعة باي حال من الاحوال لقبول اية ضريبة جديدة تفرض عليها اذ كانت مثقلة بما فيه الكفاية بالضرائب ، والحقيقة ان تلك السفن كانت تمر ببحار بعضها يخضع لدولة المماليك فتتبعوها بالضرائب من ميناء لميناء ومن سوق لسوق حتى اصبح ما يجبى منها اضعاف ثمن البضاعة الاصلي ، وهكذا تمادى اللمماليك في تطبيق هذه السياسة الاحتكارية والتشديد فيها حتى بلغ السلطان في سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م ان جماعة من التجار نقلوا فلفلاً من دون علمه الى دمشق ، فانزعج وامر باستدعائهم ومعاقبتهم (١٤٦) . وعندما لاحظ تكدس البضائع الهندية في بلاده من دون ان يشتريها احد من التجار الاجانب قرر خفض السعر قليلا ولكن ذلك لم ينفع فاتخذ اجراءات لارغامهم على الشراء(١٤٧) فعاد الى تخفيض السعر مجددا وحسن من معاملته للتجار وكان ذلك طبيعيا لتمهيد سياسته الجديدة التي لم تمنع التجار الاوربيين من قطع علاقاتهم التجارية مع دولة المماليك ، فارسلت البندقية على اثر ذلك سفينة لجمع تجارها كافة من الاسكندرية بعدما فشلت المساعي القنصلية(١٤٨).

وبعدما رفع السلطان برسباي عشور التجارة الهندية من الثلث الى النصف جاء من بعده السلطان جقمق (٨٤٢ –٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) وجعل ثلاثة ارباع العشور خالصة له مما اضعف التجارة وعسف بالتجارة والناس معا(١٤٩) ، ثم جاء السلطان قيتباي في سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م فتمادى بسياسة الاحتكار فاصدر مرسومين تعلق الاول بالتدخل بارباح تجارة مكة الخارجية(١٥٠) وتعلق الثاني حول تسعير التوابل السلطانية حيث جعل الحمل منها بمائة وعشرة دوكات بندقية ، فحتم على البنادقة بالشراء ، ولما رفضوا حبسهم بفندقهم يومين ثم امر السلطات باخلاء سبيلهم بعد ان يدفعوا له مبلغ مائة دوك للحمل الواحد وكان ذلك سنة ٨٨٤هـ /١٤٨٠م، وذكر التجار انهم يلاقون المصير نفسه في كل سنة . هذا ولم تكن اسعار التوابل مصدر شكوى التجار وحدها فحسب بل ترددت الشكوى حول رداءة التوابل وغشها حتى ارسل السلطان الى دوق البندقية برسالة يظهر اهتمامه البالغ بنقاء التوابل السلطانية من الغش(١٥١).

ومن جانب اخر لم يستثن تجار الكارم من سياسة الاحتكار التي مارسها السلاطين المماليك على تجارة الهند ، ففي سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م جمع السلطان الاشرف برسباي تجار الكارم من الثغور والموانيء جميعها واخذ منهم عهدا بان لا يبيع احد شيء من التوابل الى تجار اوربا وهدد بالعقوبات الصارمة اذا لم يمتثلوا لذلك ، فاقتصر عملهم على جمع التوابل وتسليمها في خزانة السلطان (١٥٢) فاحجم ذلك من نشاطهم باستثناء عدد ممن وثق فيهم السلطان وسخرهم بالمتاجرة لهم(١٥٣) . ولاشك ان هؤلاء التجار كان لهم دور في عمارة البلاد وتقدمها فكان من المفروض ان يترفع السلطان السلطان عن مزاحمتهم في المتاجر والا يضيق عليهم (١٥٤) كما حذر عدد من المؤرخين من خطر تعسف السلطان في جباية الضرائب الامر الذي يؤدي الى خراب البلاد وفساد الرعية(١٥٥).

وعلى اية حال فقد تضاءلت مكانتهم وتزعزت مصالحهم ، الا ان افرادها بقوا مرتبطين بعضهم ببعض فاصبحوا تجارا عاديين اذ لا نسمع لهم ذكر في المصادر بعد سنة ٨٨٩هـ /١٤٨٤ م فكان اخر تاجرين ذكرهما ابن تغري بردي هما : علي بن محمد القليوبي وعلي بن بدر الدين حسن بن عليبة الذي توفي سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م(١٥٦) : في حين كان عدد منهم قد حاول التعامل سرا مع الاجانب وهربوا البضائع والتوابل الى اوربا ، ولما اشتدت الرقابة عليهم هجروا مصر الى الاماكن الاخرى مثل الحجاز والبحر الاحمر ومارسوا تجارة متواضعة نسبيا فيها(١٥٧).

كما كان لكشف البرتغاليين لراس الرجاء الصالح سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م ثم وصول فاسكو دي كاما الى سواحل الهند في كاليكوت سنة ٩٠٤ هـ /١٤٩٨ م من ابرز الحوادث التي اضرت بالتجارة المصرية الهندية والتي اسدلت بها ستائر العصور الوسطى ؛ وحال دخول البرتغاليين الى المياه الهندية غدت اطماعهم اشد ضراوة فاعلن دي كاما Da Cama انه احق بالسيادة على المحيط الهندي فاغلق الابحار بوجه السفن المصرية والاسلامية ومنعهم من اداء التجارة في المحيط الهندي(١٥٨).

وقد كانت محاولة البرتغاليين بمثابة ثورة كبرى في عالم التجارة الدولية ، ومبعث رعب كل من القاهرة ودلهي والمماليك الايطالية وصارت مقاومة هذه المحاولة عبئا ثقيلا وقع على عاتق العثمانيين فيما بعد(١٥٩) . وقد بدأ البرتغاليون بتنفيذ مخططهم عندما اغرقوا سفن التجارة المصرية في ميناء كاليكوت سنة ٩٠٧هـ / ١٥٠٦م وبضمنها سفينة خاصة للسلطان قانصوه الغوري محملة بالتوابل.

وهكذا اخذ البرتغاليون يفرضون سياسة الحصار الاقتصادي على السفن المصرية والاسلامية من الاتجاه نحو السواحل الهندية وادى هذا الحال الى اشتداد الازمة المالية وافقار

مصر وخراب موانئها فتعطل ميناء الاسكندرية وعلى اثره تعطلت الدواوين التجارية[١٦٠] بسبب عبث البرتغاليين وتهديداتهم ، وبعد موقعة ديو الفاصلة سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٩م كانت اسواق القاهرة والاسكندرية قد افقرت تماما من التجارة الهندية وفقدت مصر كل ما يدخل بخزانتها من مكوس هذه التجارة مما دفع السلطات الى فرض الضرائب الباهظة على الناس والعامة الذين اشتد غيظهم وسخطهم على حين كانت البلاد بحاجة الى مزيد من الجهود والاموال لصد خطر العثمانيين الزاحفين نحو مصر ، فلا غرابة ان سقطت البلاد فريسة لهم بعد معركة ديو بتسع سنوات[١٦١].

الخلاصة :

١. أظهرت الدراسة عمق الصلات بين مصر والهند، الا ان اميزها كان خلال العصور التي أشرها البحث، بفضل الرعاية والتسهيلات الكثيرة التي أبداها المصريون والهنود إزاء التجارة بينهما.
٢. كانت صادرات بلاد الهند ، أضعاف مثيلاتها المصرية ، إلا أنها غالبا ما كانت تلبي حاجات الموسرين من الناس بخاصة، في حين كانت صادرات مصر ذات طبيعة ضرورية للناس بعامة.
٣. رافقت العلاقات التجارية ، تأثيرات مختلفة متبادلة ، أدى خلالها تجار الكارم دورا إنسانيا مميزا.
٤. كان التغلغل الأوربي في المنطقة، وتغير طرق الملاحة الدولية، عاملا بارزا من عوامل ضعف وتدهور العلاقة التجارية بين مصر والهند .

الهوامش:

(١) البحث مستل من رسالة الماجستير الموسومة (العلاقات المصرية الهندية (٦٤٨-١٢٥٠/٩٢٣-١٥١٧م) للطالب ياسر عبد الجواد المشهداني وباشراف د. حسين علي الطحطوح والتي نالت درجة الامتياز من جامعة الموصل قسم التاريخ (الموصل -٢٠٠٠م).

(٢) انطوان خليل ضوكط : الدولة المملوكية ، التاريخ السياسي والعسكري والاقتصادي ، دار الحديث (بيروت -١٩٨٠) ص١٨٠ -١٨١ .

(٣) بيتر فلكا : لماذا تخلف الشرق، مجلة فكر وفن، ع٤ ، (المانيا -١٩٨٤) ، ص٥.

(٤) وذلك في عهد السلطان صلاح الدين الايوبي الذي طهر السواحل المصرية في عيذاب من خطر قطاع الطرق ينظر : جمال الدين محمد بن واصل : مفرج الكروب في مناقب بني ايوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، المطبعة الاميرية ، (القاهرة -١٩٥٧) ، ج٢ ، ص١٢٨ ، شهاب الدين عبد الرحمن ابو شامة : الروضتين في اخبار الدولتين ، دار الجيل ، (بيروت -لات) ، ج٢ ، ص٢٤٠ .

(٥) تقي الدين ابي العباس احمد بن علي المقريزي : السلوك لمعرفة دول المماليك ، تصحيح محمد مصطفى زيادة ، ط١ ، المطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (القاهرة -١٩٥٨) ، جـ٢ ، ق٣ ، ص٧٠٥.

(٦) لقد كانت الملاحة في النيل مهمة وسريعة في العصور الوسطى الاسلامية على نحو غير اعتيادي ولـ تكن الامدادات والبضائع تأتي الى القاهرة الا عن طريق الملاحة النيلية التي كانت دائمة نشطة . ينظر جاستوف فييت : القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ترجمة مصطفى العبادي ، مؤسسة فرنكان للطباعة والنشر ، (بيروت -نيويورك -١٩٦٨) ، ص١٠٢.

(٧) توفيق سلطان اليوزبكي : تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي ، مؤسسة دار الكتب، (الموصل -١٩٧٥) ، ص٦٨.

(٨) المرجع نفسه ، ص٦٩.

(٩) المقريزي ، السلوك ...، ج١،ص٥٦٣، ٥٨١،٦٢١؛علي بن الحسين الخزرجي :العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، تصحيح محمد بسيوني ، مطبعة الهلال ، (القاهرة -١٩١٤)، ج٢،ص١٨٢.

(١٠) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تصحيح بولس راويس ، المطبعة الجمهورية ، (باريس -١٨٩٤م) ، ص١٦.

(11) J.J Saunders :Ahistory of Medieval Ialam ,(London –1980) , , P.166

(١٢) حياة ناصر الحجي : العلاقات بين دولة المماليك والممالك الاسبانية ، مؤسسة الصباح(الكويت – ١٩٨٠)، ص٢.

(١٣) الظاهري ، المصدر السابق ، ص٤١.

(١٤) احمد علي القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا ، تحقيق ، محمد حسين شمس الدين دار الكتب ، (بيروت –١٩٨٧) ، ج١١،ص٤٢١.

(١٥) ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن ابن الفرات : تاريخ الدول والمملوك ، تحقيق : قسطنطين رزيق المطبعة الامريكانية (القاهرة –١٩٤٢) ، ج٨،ص٦٥.

(١٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ...، ج١٣ ، ص٣٤٠ –٣٤١.

(١٧) الحجي ، المرجع السابق ، ص٣٨.

(١٨) القلقشندي ، صبح الاعشى ...، ج٦، ص١٥٨.

(١٩) ومن امثلة مراسلات السلاطين الى التجار : الى عمدة التجار المنقطعين ، قدرة الاكابر المعتبرين ، محب الفقراء والمساكين ، كهف الارامل والمنقطعين ، من فاق بحسن سيرته النجوم الزواهر وبجميل طلعته البدور السوافر وشاع في الخافقين ذكره وثناءه على الرغم من انف كل مكابر ". ينظر : مرعي الشيخ حماد الحنبلي : بديع الانشاءات والصفات والمكاتبات والمراسلات ، مطبعة انستاس الكرملي (القاهرة –١٩١٧) ، ص٢٣.

(٢٠) الفندق هو عدد من الحوانيت ومستودع للبضائع تحيط عادة بفناء واسع او تكون احيانا على هيئة رواق مغطى حيث يحتفظ التجار بسلعهم، ولم يكن في غرب الدولة العربية الاسلامية فنادق للغرباء والتجار حتى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وإنما كانت اشبه بأسواق يضعون في اسفلها بضائعهم وينامون في اعلاها . ينظر :ميتز الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة ، دار الكاتب العربي (بيروت–١٩٦٧) ، ج٢ ،ص٢٨٤ .

(٢١) ضومط ، المرجع السابق ، ص٢٠٧.

(٢٢) ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي بن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ، مطبعة بولاق (القاهرة –١٨٩٣)، ص٩٠.

(٢٣) نسبة الى جهاركس الخليلي احد امراء السلطان برقوق ، بناه في موضع كان مقبرة للخلفاء الفاطميين فأخرج عظام الاموات ورتب الموقع وبنى الخان . ينظر: المقريزي : الخطط ، دار صادر (بيروت –لات) ،ج٢ ، ص٩٤ .

(٢٤) المقريزي ، الخطط ، ج٢، ص١٢١.

(٢٥) شارل مورتيل : الاحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العهد المملوكي ، جامعة الملك سعود، (الرياض –١٩٨٥) ، ص٨٤ .

(٢٦) المرجع نفسه ، ص٨٤.

(٢٧) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج٢، ص٤٧٣.

(28) S.L . Poole :Histor of Egypt in Middle ages (Holland –1968) p,9312

(٢٩) احمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول في آثار الأول ، مطبعة عالم الكتب ، (بيروت . لات) ص٢٠٣ ؛ والإرب مكيال مصري للحنطة والشعير وهو يساوي ٧٣.١٢٥ كغم حنطة و٥٦ كغم شعير ، ينظر : فالتر هينيز : المكيال والأوزان وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة كامل العسلي ، منشورات الجامعة الأردنية (عمان . ١٩٧٠) ، ص٥٨ .

(٣٠) ابن العماد أبو فلاح الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مكتبة القدس ، (القاهرة . ١٩٤٧) ، ج٧ ، ص٦ .

(٣١) المصدر نفسه ، ج٧ ، ص٣٠٧ .

(٣٢) شهاب الدين علي العسقلاني ابن حجر : أنباء العمر بأبناء العمر ، مطبعة المعارف العثمانية ، (حيدر آباد . ١٩٧٢) ، ج٨ ، ص١٤٧ .

(٣٣) كمثال على ذلك فقد كتب السلطان الأشرف برسباي سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م إلى الأمير سودون المعمدي ناظر مكة أن لا يؤخذ من تجار الهند سوى العشر وأن لا يؤخذ من تجار مصر التجار الشاميين العشرين ، إذا وردوا ببضائع اليمن وإذا جاء تجار اليمن ببضائع جدة تصادر بضاعتهم كلها ، ذلك بسبب سوء العاملة التي يفرضها حكام اليمن على تجار الهند فتركوا المرور بعدن واتجهوا إلى جدة ولكن حملت عليهم ضريبة العشر ورسوم القبان مما دفعهم إلى التذمر من المكوس العالية فخاطبوا رجال العلم والدين في مصر من أجل إصدار الفتاوى بجواز أخذ العشور وإنفاقها في المصالح وقرئت الفتاوى في مواسم الحج ، ينظر : علي بن داود الخطيب ، الجوهري الصيرفي : نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، تحقيق حسين حبشي ، مطبعة دار الكتب ، (القاهرة . ١٩٧٣) ج٣ ، ص٣٠٣ ، مورتيل : المرجع السابق، ص١٨٧.

(34) A.B.Serjeant: The Portuques in the sooth Arabian coast (Oxford-1963), P.12.

(٣٥) القلقشندي : صبيح ، ج١١ ، ص٤١٢ ؛ ابن الفرات ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص٢٦١ .

(٣٦) ريتشارد جي ولشن : ماركوبولو ، رحلاته واستكشافاته ، ترجمة حسن حسين ألياس ، منشورات دار البصري ، (بغداد . ١٩٧٩) ، ص١١٢ .

(٣٧) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن بطوطة ، الرحلة ، دار صادر ، (بيروت . ١٩٦٤) ، ص١٨٧ ، ٢٥٢ .

(٣٨) وليد جرادات : الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر ، دار الثقافة ، (الدوحة . ١٩٨٦) ، ص١٩ .

(٣٩) وهي بلدة صغيرة تقع على ساحل البحر الأحمر الغربي ، وهي مرسى للسفن القادمة من الهند والصين وقد اختلف المؤرخون القدامى في أمر ؟؟؟ فقسما منهم ينسبها إلى البجاة ، وهي إحدى نواحي الحبشة وقسم آخر ينسبها إلى حدود مصر وهو الأصح لأنها من أعمال مصر حقيقة ، وصار هذا الميناء مسلكا للتجار والحجاج يمرون به حتى يصلون الصحراء الشرقية كما ؟؟؟؟ بضائع الهند تحمل من عيذاب إلى المحطات التجارية الأخرى حتى سنة ٧٦٠هـ/١٣٦١م إذ

غالى حكام هذه الأماكن في فرض الضرائب وسوء المعاملة للتجار الذين حالوا التحرر من معاناتهم . ينظر : محمد بن احمد بن جبر ، الصلة ، دار الكتاب اللبناني . المصري ، (بيروت . لات) ، ص٦٧-٦٨ ؛ ابن دقماق : المصدر السابق ، ص٣٥ .

(٤٠) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، الهيئة المصرية للكتاب ، (القاهرة . ١٩٧٠) ، ص١٢٤ .

(٤١) تقع على الشاطئ الشرقي للنيل وكانت ملتقى القوافل من بلاد النوبة والحبشة وكانت المركز الرئيسي للتجار القادمين من الهند . ينظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣٤١ .

(٤٢) فهمي ، المرجع السابق ، ص١٣٣ ؛ ضومط ، المرجع السابق ، ص١٨٢ .

(٤٣) كان هذا الطريق مسلكا للحجاج لمدة ٢٠٠ سنة ، وكان تجار الهند يردون إلى عيذاب ثم إلى قوص ثم إلى القاهرة غير أنه لم يكن يخلو من صعوبات تعترض الملاحة فيه لاسيما المسافة الكبيرة من الهند إلى البحر الأحمر ومن فيها من تيارات هوائية بحرية فضلا عن كثرة الشعاب المرجانية في البحر الأحمر ، ينظر : المقريزي : الخطط ، ج١، ص١٢ ، ولشن ، المرجع السابق ، ص١١٦ .

(٤٤) سونيابن هاو : في طلب التوابل ، مكتبة النهضة ، (القاهرة . ١٩٥٧) ، ص٤٥ .

(٤٥) فلكا : المرجع السابق ، ص٦ .

(٤٦) ظل الأوربيون على جهل بأوضاع الملاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر لمدة طويلة وكانت معلوماتهم مشوشة ويعوزها الكثير من الدقة ، ينظر : جرادات : المرجع السابق ، ص٨٠ .

(٤٧) هي مدينة كبيرة لها أربعة أبواب موزعة على جهاتها ولها أسواق عامرة تعد من أكبر الأسواق في العالم لتصدير التوابل الهندية وكانت تسمى بـ(مخزن العالم) ، وتبعا لأهميتها في التجارة فقد زارها الرحالة ابن بطوطة وأعجب بمرساها الطويل حتى أنه جعلها بنفس مرتبة الموانئ العالمية الأخرى ، وبهذا يمكن القول أن القاهرة كانت مركز الثقل الأساسي في حين كانت الإسكندرية العاصمة التجارية بدون جدال . ينظر : ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص٢٠ ؛ رشيدة بسرور : الإسكندرية في عصر المماليك ، رسالة دكتوراه غير منشور ، جامعة الآداب، (تونس . ١٩٨٦) ، ص١١ .

(٤٨) إحدى الموانئ المطلة على النيل وتعرض لهجمات من قبل الصليبيين أثناء الحكم الأيوبي لمصر ولكن تمت إعادة بناؤه في العصر المملوكي حيث تنقل البضائع منه إلى منطقة الغرما ثم تحمل على الدواب إلى السويس الذي يقع شرق مصر نهاية البحر الأحمر ثم الحجاز ، وقد أنشأ منه الأيوبيين مرفأ تجاريا ، ينظر : أبي إسحاق إبراهيم بن الأصطخري : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر العالي ، دار القلم (القاهرة . ١٩٦١) ، ص٣٠ ؛ المقريزي ، الخطط ، ج١ ، ص٢١٢ .

(٤٩) فهمي ، المرجع السابق ، ص١٤١ .

(٥٠) المرجع نفسه ، ص١٤٣ .

(٥١) ازدادت أهمية ميناء جدة في التجارة المصرية الهندية منذ ٨٢٥هـ/١٤٢٢م إذ أصبحت السفن التجارية القادمة من الهند تبحر إليها مباشرة دون المرور إلى ميناء عدن وذلك بفضل جرأة تاجر هندي يدعى الناخوذة إبراهيم الذي أبحر داخل البحر الأحمر دون أن يرسي في عدن ، فنزل في جدة ولقي معاملة حسنة من رجال وأمراء مكة وعندما ازدهر هذا الميناء وراجت تجارته خشيت السلطة المملوكية من أن تفلت من يدها الضرائب والمكوس الكبيرة التي تشكل موردا كبيرا في ميزانيتها فوضعت جدة تحت الإدارة المصرية المباشرة وصار يتوجه إليها أمير مملوكي للجباية . ينظر : مورتيل ، المرجع السابق ، ص١٨٣ .

(٥٢) اشتهر ذكرها في المصادر التاريخية والجغرافية ، وعلى الرغم من أنها تقع خارج السلطة المملوكية إلا أنها كانت المستودع الرئيسي لتجارة الشرق ومثلث نهاية الخط الملاحي للسفن الهندية ، ولكن أهمية هذا الميناء تلاشت بسبب سوء معاملة حكام اليمن الرسوليين لتجار الهند وفرضهم الضرائب الباهضة ، ينظر : أحمد دراج ، عيذاب من الثغور العربية المندرسة ، علم المؤرخ العربي ، ع٧ ، (بغداد . ١٩٨٧) ، ص٦٣ .

(٥٣) أبو المحاسن جمال الدين بن ثغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة ، دار الكتب ، (القاهرة . ١٩١٨) ، ج٨ ، ص١٥٢ .

(٥٤) فهمي : المرجع السابق ، ص١٤٠ .

(٥٥) ضومط : المرجع السابق ، ص١٩٨ .

(٥٦) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٧٠ ، ٧٣ ؛ ضومط : المرجع السابق، ص١٩٨.

(٥٧) تقع على ساحل مليبار الشهير بإنتاجه لأصناف جيدة من التوابل ، وتمثل السوق التجارية الكبرى للعرب وسيطر عليها العرب بعد أن أقاموا فيها ووسعوا تجارتهم حتى صارت من موانئ الهند المشهورة على الرغم من صغرها ، ينظر : زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين ، (لشبونة . ١٨٨٩) ، ص٢٦ .

(٥٨) محمد إسماعيل الندوي : تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ، دار الفتح ، (بيروت . لات) ، ص١٦٤ .

(٥٩) شوقي عبد القوي عثمان : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، (الكويت . ١٩٨٠) ، ص٢١١ .

(٦٠) توفيق إسكندر : نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، ع٦ ، (القاهرة . ١٩٥٧) ، ص٣٩.٣٨ .

(٦١) المقريزي : شذور العقود بذكر النقود ، المطبعة الحيدرية ، (النجف . لات) ، ص٣١.٣٠ .

(٦٢) المصدر نفسه ، ص٣١ .

(٦٣) هي الودع الذي يستخرج من صدفات البحر وكانت وسيلة للتعامل بالتجارة الداخلية ، ينظر المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، مطبعة لجنة التأليف والتوزيع والنشر ، (القاهرة . ١٩٤٠) ، ص٦٩ .

(٦٤) المصدر نفسه ، ص٦٩ .

(٦٥) محمد بن احمد الحنفي ابن أياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، المطبعة الأميرية ، (القاهرة . ١٨٩٤) ، ج٢ ، ص٥٦ .

(٦٦) التنكة تساوي ٨٠ درهم مصري وكانت العملة السائدة في عهد السلطان محمد تغلقشاه ، ينظر: المقريزي ، الخطط ، ج٢ ، ص١٧٤ .

(٦٧) يذكر أن السفينة الواحدة المخصصة لنقل توابل يمكنها أن تزيد حمولة ، تفوق ٣ مرات طاقة نقل ثلاث سفن إيطالية آنذاك ، ينظر : بسرور : المرجع السابق ، ص٢٠٦ .

(٦٨) ولش : المرجع السابق ، ص٢٠ ؛ اليوزبكي : المرجع السابق ، ص٨٨ .

(٦٩) ابن جبير ، المصدر السابق ، ص٦٨.٦٧ .

(٧٠) علي عبد الحسين المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس ، (بيروت . ١٩٨١) ، ج١ ، ص١٣٦ .

(٧١) عثمان ، المرجع السابق ، ص٩٢ .

(٧٢) أرسلت هذه المعلومة مشكورة الدكتورة بسرور (جامعة تونس . ٢٠٠٠) .

(٧٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص١٧٢ .

(٧٤) كانت هياكل السفن تصنع من خشب الساج وجوز الهند المتين لأنه يكاد يمتنع عن التلف فإذا كان في ماء البحر يبقى ٢٠٠ سنة وإذا خرج من الماء شرع بالتلف ، ينظر : المسعودي ، المصدر السابق ، ج١ ، ص١٢٤ .

(٧٥) اليوزبكي ، المرجع السابق ، ص٨٩ .

(٧٦) لمزيد من المعلومات عن الطرق البحرية بين سواحل الهند وبلاد العرب ينظر :

Hussian Ali Tahtooh: Commercial Relations Between the Arab World St. Andrew (U.K.-1986) PP., 97-116.

(٧٧) حسن إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ، (القاهرة . ١٩٤٨) ، ص١٢٩ .

(٧٨) ضومط : المرجع السابق ، ص١٩٨ .

(٧٩) هو شجر ينبت في حصن نابليون في مصر وإن جميع فوائده طبية : هاو : المرجع السابق ، ص١٦ .

(٨٠) شمس الدين أبو عبد الله المقدسي : أحسن التعاليم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل ، (لندن . ١٩٠٩) ، ص٤٧٤ .

(٨١) زكريا بن محمد القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، (بيروت . ١٩٦٠)، ص١٢٣، المعبري، المصدر السابق، ص٣٥.

(٨٢) ميتز ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٧٤ .

(٨٣) أجوده النظيف من الدق والتراب والسالم من العفونة ، ومنه الفلفل الأبيض فإنه جنس يخالف الأول في لونه وشكله وهو يدخل في صناعة الأدوية ولا يدخل في صناعة الأغذية وأفضله ما نبل حبه وقلت قشوره . ينظر : أبي فضل جعفر بن علي الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة ، ط١ ، مطبعة الغد ، (القاهرة . ١٩٧٧) ، ص٤١ .

(٨٤) نوع من التوابل خال من العفونة وطري ويستورد من سهول الهند ويأتي بعد الفلفل بحسب الكميات المصدرة منه ، ينظر : الدمشقي ، المصدر نفسه ، ص٤٢ .

(٨٥) مادة تدخل في صناعة الأدوية والطيب وهو يستخرج من شجرة سطحية بحرية بأطراف الهند وهو على عدة أصناف واستعماله يسرع الشيب ويمنع الرعاف والصداع ، ينظر : شهاب الدين احمد عبد الوهاب النويري،نهاية الإرب في فنون الأدب،(القاهرة– لات)،ج١٢،ص٢٩٤،٢٩٢.

(٨٦) نبات يجلب من سفالة الهند له رائحة زكية جدا وهو حار يابس مقو للقلب والكبد وقاطع للغثيان، يدخل في صناعة الأدوية ، ينظر : النويري ، المصدر نفسه ، ج١٢ ، ص٤٦.٤٥ .

(٨٧) هو عروق متشعبة ذات عقد لونها بين السواد والحبرة شبيهة بأصول النوع الكبير من السعد وهي حرفية الطعم وفيها مادة عطرية تجلب من الهند ، ينظر : بسرور ، المرجع السابق ، ص٢٠٧ .

(٨٨) بسرور : المرجع نفسه، ص٢٠٧، ٢١١.

(٨٩) ك . م . بانيكار : أسياد السيطرة الغربية ، دار المعارف ، (القاهرة . ١٩٦٢) ، ص٢١ .

(٩٠) المقريزي : الخطط ، ج٢ ، ص٤٤٢ .

(٩١) المقريزي : السلوك ، ج٢ ، ص٧٢٥ ، والرطل = ٤٣٧.٢٠٧٦كغم ، ينظر هنتر ، المرجع السابق ، ص٣١ .

(٩٢) بانيكار، المرجع السابق ، ص٢١ .

(٩٣) العود خشب شجر طيب الرائحة وهو معروف بالتجارة والطب والصيدلة ، ينظر : الدمشقي ، المصدر السابق ، ص٣٨ .

(٩٤) النويري ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص٢٦.٢٥ .

(٩٥) مادة تؤخذ من غزلان يوجد في التبت وجزيرة سيلان ومسك التبت أطيب أنواع المسك وأجوده رائحة ، ينظر : الدمشقي ، المصدر السابق ، ص٣٦ .

(٩٦) وهو مادة صلبة شهباء اللون تشبه الشمع إذا سخنت خرجت منها رائحة طيبة ويرى البعض أنها مادة بحرية تستخرج من الحوت وهي مادة نباتية ، ينظر : الدمشقي ، المصدر نفسه ، ص٣٧ .

(٩٧) النويري ، المصدر نفسه ، ج١٢ ، ص١٦ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٢ ، ص١٢٨ .

(٩٨) على الرغم من أن هناك مناطق عربية تشتهر بصناعة السيوف كالمشرقية ، واليمانية ، إلا أن الهند اشتهرت بصناعة أنواع متميزة منها حتى اكتسبت بعضها صيغة (السيف المهند) ولا يعرف بالضبط متى استقدم العرب سيوف الهند ولكنها اشتهرت أيضا لدى عدد من الشعراء كالفرزدق مثلا . ينظر : Tahtooh : op.cit., P., 186-189.

(٩٩) حسن حبشي : رحلة طاغور في عالم القرن ١٥ ، دار المعارف ، (القاهرة . ١٩٦٨)، ص٧٨ .

(١٠٠) الدمشقي ، المصدر السابق، ص٣١ .

(١٠١) عبد الوهاب عزام : مجالس السلطان الغوري ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، (القاهرة . ١٩٤١) ، ص١٤ .

(١٠٢) القزويني : المصدر السابق ، ص١٢٨ .

(١٠٣) منهم من نسبها إلى دولة الكانم في السودان الغربي التي تقع بين بعد الغزال وبحيرة تشاد وسكانها من العرب ويدعون النسب العربي وكانت لهم علاقات طيبة مع المماليك . ولقي هذا الرأي دعم أغلبية المؤرخين العرب في حين لم يحظ بقبول عدد من المستشرقين الذين أنكروا وقوع تصحيف بالاسم . ينظر : القلقشندي : ضوء الصبح المسفر وحني الدوح المثمر، مطبعة الواعظ ، (القاهرة . ١٩٠٦) ، ص٢٥٣ ؛

W.G. Fischel: The Spice Trade in Aamluk Egypt. J.E.S.H.O, Vol. I, 1960, P., 158.

وهناك من نسبها إلى لغة أهل التاميل جنوب الهند حيث وجدت كلمة كاريام وتعنى الأعمال ، وربما لأن أعمال تلك المناطق كانت تجارية على الأغلب . ينظر : س. د. جواتين : دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية ، دار القلم ، (بيروت . ١٩٨٠) ، ص٢٩٠ ؛ S. Labib: "Karim", El2, Vol., 4, P., 40 .

وقسم قال أن الاسم مأخوذ من عدد من أنواع المنتجات الهندية وهي كورا ديمارهي الحبهان أو الهيل ينظر : صبحي لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة مصر في القرون الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، م٤ ، (القاهرة . ١٩٥٢) ، ص٦ .

(١٠٤) أبي بكر بن عبد الله إيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرو ، دار إحياء الكتب ، (القاهرة . ١٩٧٢) ، ج٧ ، ص٧١ ؛

S. D. Goitein: A Mediterranean Society, (Los Anglos-1967), Vol. I, P., 142.

(١٠٥) محمد كريم إبراهيم : العلاقات التجارية بين عدن والهند ت ٦-٧هـ ، مجلة المؤرخ العربي، ع٣٣ سنة ١٩٨٧ ، ص٢٢٥ .

(١٠٦) هي مجموعة من الأوراق وجدت في معبد في الفسطاط احتوت على معلومات سياسية واجتماعية عن العصور الوسطى وبموجب تعاليم اليهود فإن الورقة التي يكتب فيها اسم الرب يجب أن تحتفظ في حجرة في جدار المعبد . ينظر :

Goitien: From Mediterranean to India, documents India Trade-South Arabia and East African coast from 11-12. Specvium, Vol., 39, P., 181.

(١٠٧) وجدت أكثر من ٣٠٠ وثيقة متعلقة بتجارة الهند وهي موزعة في جامعات العالم ينظر:

Goitien: Ibid, P. 9-10.

(١٠٨) جواتين : دراسات ، ص١٩٣ .

(109) Goitien: new light of beginning of Karmi Merchants, J.E.S.H.O, Vol, I, 1959, P., 180.

(110) Ibid, P.,180-181.

(١١١) ابن جبير ، الرحلة ، ص١٩٣ .

(112) Fischel: op.cit, p., 160-161.

(١١٣) المفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد (باريس . ١٩٢٨) ، ص٥٠ .

(١١٤) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص١٥٨ .

(١١٥) وهو في الإسكندرية وألحق به جامعا وخانا والجدير بالذكر أن أول من بنى فندقا للكارم هو الأمير تقي الدين عمر بن عم صلاح الدين ، ينظر : ابن دقماق ، المصدر السابق ، ص٤٠ .

(١١٦) المصدر نفسه ، ص٥٠ .

(١١٧) ومن رؤساء الكارمية : عمر بن محمد الدماميني (ت ٧٠٧هـ/١٣٠٧م) ، والصدر عز الدين الكولحي (٧١٣هـ/١٣٣١م) والصدر برهان الدين المحلي (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) ينظر المقريزي: السلوك ، ج٢ ، ص٣٤٠ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص٢١٩ ؛ ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٢٨٩ .

(118) E. Ashtor: Studies on the learning trade in middle age (iondon-1976), P.250.

(١١٩) على سبيل المثال قرضهم للسلطان للناصر محمد في حربه ضد المغول ٧١١هـ/١٣١١م، قرضهم للسلطان برقوق مليون درهم في حربة ضد تيمورلنك ومساعدتهم لقاتباي بأربعين ألف دينار في حملته ضد العثمانيين ، فضلا عن افتدائهم للأسرى المسلمين أثناء الحرب الصليبية، ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ص١٠٣ ؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق ، ج١٠ ، ص٢٧١ ؛ ابن أياس ، ج١ ، ص٣٠٢ ؛ ابن جبير ، الرحلة ، ص٢١٥ .

(١٢٠) الخزرجي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٣٩ .

(١٢١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٣ ، ضوء الصبح ، ص٢٥٣ .

(١٢٢) الخروبي : نسبة إلى الخروبة منطقة تقع بين العريش ورفح وهي من محطات البريد. ينظر : المقريزي ، ج٢ ، ص٣ .

(123) Ashtor: A social and economic history of near east in the middle ages, (London-1976), P.300.

(١٢٤) ابن تغري بردي : المصدر السابق ، ج٧ ، ص٢٢١، الحنبلي، شذرات...، ج٥، ص٣١٥.

(١٢٥) أبو الفدا ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، ط١ ، دار ابن كثير ، (بيروت . ١٩٦٦) ، ج١٣، ص٢٦٢ .

(١٢٦) المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ص٣٣ .

(١٢٧) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٤ ، ص١٧١ .

(١٢٨) ابن حجر : انباء... ، ج٦ ، ص٩ ؛ لبيب : المرجع السابق ، ص٣١.٣٠ .

(١٢٩) عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، مكتبة الحياة ، (بيروت . لات) ، ج٥ ، ص٢٤٠ .

(١٣٠) المصدر نفسه : ج١٠ ، ص١٤٧ .

(١٣١) المصدر نفسه : ج١١ ، ص١٣٧ .

(١٣٢) بسرور : المرجع السابق ، ص١٢ .

(١٣٣) السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص١٤٤ .

(١٣٤) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٩٠ .

(١٣٥) قطب الدين النهروالي:البرق اليماني في الفتح العثماني،دار اليمامة،(الرياض–١٩٦٧)، ص١٣١ .

(١٣٦) فيت : المرجع السابق ، ص١٠١ .

(١٣٧) حبشي : المرجع السابق ، ص٩٧ .

(١٣٨) فيت : المرجع السابق ، ص١٠٨ .

(139) Sarjeant: op.cit., P., 12.

(١٤٠) على سبيل المثال طاعون مصر ٧٤٩هـ/١٣٤٩م وغلاء الأسعار زمن الأشرف شعبان ٧٧٦هـ/١٣٧٦م ينظر : جلال الدين السيوطي : تاريخ الخلفاء ، مطبعة السعادة، (القاهرة . ١٩٥٢) ، ص٥٠٠، القرماني، المصدر السابق، ص٣٠٥.

(١٤١) الصيرفي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص١٤٥ ؛ والحمل يساوي ٥٠٠ رطل أي ٢٢٥كغم وهو مقدار ما يحمله البعير من الفلفل . ينظر : هنتز : المرجع السابق ، ص٢٧ .

(142) Poole: op.cit, P., 339.

(١٤٣) عن الأمراء والسلاطين الذين تركوا ثروات كبيرة ينظر : المقريزي : الخطط ، ج٢ ، ص٤٠٤ ، ابن أياس ، ج١ ، ص٥٠ .

(١٤٤) المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٧٠٥ .

(١٤٥) الحجي : المرجع السابق ، ص٣٣١ .

(١٤٦) الصيرفي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٣٨ .

(١٤٧) الصيرفي : المصدر نفسه، ج٣ ، ص٣٥، ابن حجر، انباء...، ج١، ص٣٤٨.

(١٤٨) لبيب : المرجع السابق ، ص٤٥ .

(١٤٩) مورتيل : المرجع السابق ، ص١٨٧ .

(١٥٠) أصدر هذا المرسوم سنة ٨٨١هـ/١٤٧٧م أذن لشريف مكة أخذ مبلغ ألف دينار أشرفي من تركة التاجر الذي يموت بمكة دون أن يرثه أحد أما ما زاد عن الألف فيرسل إلى خزانة السلطان بالقاهرة ، ينظر مورتيل ، المرجع السابق، ص١٨٦ .

(١٥١) فهمي ، المرجع السابق ، ص١٨٦ .

(١٥٢) الصيرفي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص١٨٥ ، ٣٣٧ .

(١٥٣) فمثلا أعطى السلطان برسباي مبلغ ٦٠ ألف دينار إلى كبير التجار نور الدين الطنبذي ليتجر له فيها فعسف على الناس وغالى في احتكاره للفلفل ، ينظر : ابن حجر : أنباء ، ج٨ ، ص١٦٩ .

(١٥٤) الدمشقي : المصدر السابق ، ص٦١ .

(١٥٥) عبد الرحمن بن خلدون : العبر ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، (بيروت . ١٩٥٩)، ج١، ص٢٢٤ .

(١٥٦) الصيرفي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٣٧ ؛ Labib: op.cit. P., 643

(١٥٧) فهمي : المرجع السابق ، ص١٣ ؛ بسرور : المرجع السابق ، ص٧٤ .

(158) G. Freeman: The East African coast, (Oxford-1966), P.57.

(١٥٩) نادية محمود مصطفى : العلاقات الدولية في الإسلام ، (القاهرة . ١٩٩٦) ، ج١، ص١٤٣.

(١٦٠) ابن أياس : المصدر السابق ، ج٣ ، حوادث سنة ٩٢٠هـ .

(١٦١) أما البرتغاليون فقد سيطروا على المحيط الهندي لقرن ونصف واغتنوا غناء كبيرا وازدهرت بلدان شواطئ المحيط الأطلسي والهندي في حين ركدت ثغور البحرين الأبيض المتوسط ، والاحمر، ينظر : النهرواني : المصدر السابق ، ص٢٠.١٨.